نظرية التواصل اللِّساني، المفهوم والرؤية

م.م. علي جواد الذبحاوي أ.د. بشرى محمد طه البشير

الجامعة المستنصريَّة/ كلية التربيَّة

Theory of linguistic communication, concept and vision

Prof.Dr. Bushra Mohammed Taha Al-Bashir
Ass.Lec. Ali Jawad Al-Thabhawi
University of Mustansiriya\ College of Education
Bmtal1954@gmail.com

Abstract

Human communication has been a fertile topic for human thought since human existence has been surrounded by many issues, especially the need to bring about an understanding among the members of society in order to harmonize and harmonize within its social system. It seeks to communicate for understanding and the transmission of information. Various means. The language was the finest of these things to achieve this communication. The purpose of this research is to clarify the reality of linguistic communication through two things: its concept and vision, and the second: the stages it has undergone in Western studies and linguistic theories.

Keywords: Communication, Concept, Vision.

الملخص:

كان التَّواصل البشريّ وما يزال موضوعاً خصباً للفكر الإنساني، وذلك منذ أنْ وجد الإنسانُ نفسَه محاطاً بالعديد من القضايا خاصة حاجته إلى إحداث تفاهم بين أفراد المجتمع من أجل التآلف والتّجانس داخل منظومته الاجتماعيّة، فاهتدى إلى التّواصل من أجل التّفاهم ونقل المعلومات، وخدمةً لهذه الغاية أوجد لنفسه وسائلَ متنوعة. وكانت اللُّغةُ أرقى هذه الأشياء لتحقيق هذا التّواصل. ويهدف هذا البحث إلى بيان حقيقة التواصل اللساني من خلال أمرين أولهما: مفهومه ورؤيته، والثاني: المراحل التي مرّ بها في الدراسات الغربية والنظريات اللغوية.

الكلمات المفتاحية: التواصل، المفهوم، الرؤية.

المقدّمة:

سارت الدراسات اللّسانيّة الحديثة في منهجها لدراسة اللّغة على أساسين: **أحدهما:** يُعنى بدراسة النِّظام اللّغويّ بوصفه بنيةً مجردةً معزولةً عن سياقها وظروف استعمالها، إذ يتميَّز بعنايته بالشّكل أي (البُنى) أكثر من عنايته بالمعنى واللّغةُ عندئذٍ لا تمثل سوى ((مجموعة من الجمل تربط بين مكوناتها علاقاتٌ صرفيّة تركيبيّة ودلاليّة))[1]، والذين التمسوا هذا المنهجَ في دراسة اللّغة رفضوا التَّفسيرات غير النَّحويّة؛ لأنَّ التَّفسير غير النَّحويّ خطيئةٌ لا يجوز لنا أنْ نفارقها إلاّ أنْ تفشلَ التَّشكيلاتُ النَّحويَّةُ المُحكَمَةُ[2]، **أمَّا الأساسُ الآخرُ:** فيُعنى بدراسة اللّغة ناظرًا إليها على أنَّها وسيلةٌ من وسائل التَّواصل فكانت العنايةُ موجهةً صوبَ الاستعمال اللغويّ والضّوابط التي تَحْكُمُه، ودور المقام أو السّياق غير اللّغويّ في التَّواصل الإنسانيّ، وما يُمَيِّزُ هذا الأساس عنايته بعناصرِ التَّواصل والعلاقةِ التي تربط بعضهما ببعض، والكشفِ عن وظائف التَّواصل وما يرافق الكلامَ من حركاتٍ وإشاراتٍ، فضلاً عن عنايته بالمُتَكَلِّم والمُخَاطَب، وما يتبعانه من استراتيجيات من شأنها الكشف عن المعنى وإيصالهِ، وبيئةِ الحدث المكانيةِ والزمانيةِ، وما يستلزمه التَّواصلُ من معانٍ مقاميَّةٍ تعجز النَّظرياتُ الشكليّةُ البنائيَّةُ الكشفَ عنها أو تحليلَها[3].

(1) المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد:19.
(2) يُنظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث:82.
(3) يُنظر: مدخل إلى اللسانيات:21.

أوّلاً: التّواصلُ اللّسانيّ مفهوماً ورؤيةً.

ورد في لسان العرب أنَّ التّواصل مشتق من مادة (و.ص.ل) على صيغة "التّفاعل" الذي يُفيدُ الاقترانَ والاتصالَ والصلةَ والترابطَ والالتئامَ والتّتابعَ والإبلاغَ، وأصلُه الفعلُ الثلاثي "وَصَلَ" الذي يعني خلاف الهجران. ومن المعاني ذات الصِّلة به التي جاءت في اللّسان: التّواصل ضدّ التّصارُم (الانقطاع) وجاء أيضاً كلُّ شيء اتصل بشيء فما بينهما صلة[1].

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [القصص: الآية:51] ولقد وصَّلْنا لهم القول أي القرآن، تابعناه موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزواجر، والدعاء إلى الإسلام. وأنزلناه شيئاً بعد شيءٍ، ليصل بعضه ببعض، وتنزيله كذلك ليكون أبلغ في التّذكير، ولذلك قال: لعلَّهم يتذكَّرُون، يعني أنَّ القُرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً وعداً، ووعيداً، وقصصاً، وعِبَراً، ومواعظ، ليتذكّروا فيفلحوا. وقيل: معنى وصَّلْنا: أبْلَغْنَا[2].

فالتَّواصل بمعناه اللُّغوي يعني: الإبلاغ والجمع والتَّوصيل والاتفاق ووَصْلُ الشّيء بعضه ببعض والوصول وبلوغ النِّهاية على خلاف التَّصارم والانفصال.

وكان التَّواصل البشريّ وما يزال موضوعاً خصباً للفكر الإنساني، وذلك منذ أنْ وجد الإنسانُ نفسَه محاطاً بالعديد من القضايا خاصة حاجته إلى إحداث تفاهم ونسج علاقات بين أفراد المجتمع من أجل التّآلف والتّجانس داخل منظومته الاجتماعيّة، فاهتدى انطلاقاً من فطرته وحاجته الطبيعيَّة إلى التّواصل من أجل التّفاهم ونقل المعلومات وخدمةً لهذه الغاية أوجد لنفسه وسائلَ متنوعة وكانت اللُّغةُ أرقى هذه الأشياء لتحقيق التّواصل في أيِّ سلوك من الإنسان يحتاجُ فيه إلى تأويل سواءٌ أكان هذا السلوك صوتياً أم غيرَ صوتيّ، فإذا كان الإنسانُ وكان معه غيرُه احتاج إلى أن يتفاهم مع ذلك الغير، فطفق يحاول بشتى الوسائل كي يبلغ قصده ومراده.

فكان الإنسانُ في بدايات الأمر يمارس عادات كالزمجرة والهمهمة والصراخ، فضلاً عن لغة الجسد كإشارات الأيدي والأرجل وحركات أُخرى، وليسجل أفكارَه لجأ إلى نقش الصّور على جدران الكهوف والحجارة والأخشاب والعظام، ثم انتقل إلى مرحلة اللّغة بالاعتماد على رموز صوتية في تبليغ الرسالة وغالباً ما تكون وجهاً لوجه فيستخدم اللّفظ كوسيلة لنقلها فيستدركه المستقبلُ بحاسة السّمع[3].

والتّواصل في هذه المرحلة له حدودٌ لا يمكنُ أن يتعداها فإذا كان المُتَكَلِّمُ والمُخَاطَبُ في مكانٍ واحدٍ فإنّهما يحققان النّجاحَ عند توافقهما على اللُّغة المشتركة، وفي الوقتِ نفسِه يجعل المُتَكَلِّمُ التَّواصلَ محدوداً؛ لأنَّ اعتماده على الأدوات الطبيعيَّة كاللِّسان والأُذن والعين يجعل رسالته لا تذهب أبعد مما يمكن أن يذهب إليه الصَّوت العالي والسَّمع الجيِّد والنظر الحادّ، فضلاً عن محدودية الزَّمان والمكان، وإذا انعدمت هذه الشُّروط فإن عملية التَّواصل والتَّبليغ لا تتحقق.

وبعد هذه المرحلة انتقل الإنسانُ إلى الكتابة بمراحلها الثَّلاث التّصويريّة والكتابة على أساس النُّطق والأبجديَّة[4].

وتُعَدُّ دراسةُ التَّواصل عند الإنسان قديمةً لها جذورٌ موغلةٌ في القِدَم، إذ ((تشير المقولات المرويّة عن "أفلاطون وهوراس وأرسطو" إلى أنّ ملامح مراعاة المُخَاطَب ومفهوم التلقي قد بدأ يظهر عند الإغريق))[5]، ويقال إنَّ أفلاطون كان أسبق من غيره في الإبانة عن هذا المعنى[6]، فهو يقول: ((على المرء لكي يكون قادراً على الخطابة أن يعرف ما للنفوس من أنواع، وعلى قدر هذه الأنواع تكون الصفات وهو ما يختلف به الناس... ولكلِّ حالة نفسية نوع خاص من الخطابة فعليَّ إذن كي أولِّد في النفوس نوعاً من

(1) يُنظر: لسان العرب: مادة (و ص ل).
(2) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد:259/4.
(3) يُنظر: اللغة والتواصل إقترابات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي:92، والتكنولوجيا في عملية التعلم والتعليم: 40.
(4) يُنظر: اللغة لفندريس:390، واللغة والتواصل اقترابات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي:139، والاتصال ونظرياته المعاصرة:94.
(5) إشكاليات التلقي في الشعر العربي الحديث من عام 1925 إلى نهاية القرن العشرين: 7.(رسالة).
(6) يُنظر: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي-دراسة مقارنة: 121.

الإقناع أن أُطابق بين كلامي وطبيعتهم، وإذا توافرت للمرء هذه المبادئ عرف متى يجب أن يتكلم ومتى يجب عليه أن يمتنع من الكلام ومتى عليه أن يكون موجزاً أو مُطيلاً أو مبالغاً. أمّا قبل الوقوف على هذه فلا وسيلة له إلى التعرف على ذلك))[1].

أمَّا أرسطو فقد عُني بالمتلقي بوصفه يحملُ وزناً وقيمةً داخل العمليّة التَّواصليَّة وذلك من خلال ما نسبه للأدب من وظيفة تطهيريّة، لذلك إنَّ الوضعيات التّي يتمُّ فيها التّمويه تُعَدُّ ذات شأن في تحقيق الاندماج التّام بين المتلقي والعمل الدراميّ [2].

وبهذا فقد عُدَّ كلٌّ من إفلاطون وأرسطو من ((مؤسسي دراسات التواصل؛ بحكم أنّهما توصلا إلى فكرة جوهريّة مفادها أنَّ الاتصال ما هو إلا فن، أو صناعة يمكن تعلمها بالتمرين لذلك يمكن اعتباره علماً قائما بذاته))[3].

ومن خلال مفهوم التَّواصل هذا أدرك علماءُ النَّفْس سرَ التَّرابط الإنسانيّ الذي عن طريقه يتعلَّم الإنسانُ كيف ينتمي إلى المجتمع ويصبح جزءاً منه، فتوصلوا في ضوئه إلى فهم آليات السلوك الإنسانيّ، فعدَّوا الإنسانَ المُصابَ بالتَّوحُّد إنساناً مريضاً؛ ولكن يمكن معالجتُه من خلال حالات تواصليَّة يثيرها المُحَلِّل من خلال استنفار الطاقات الانفعاليّة الموجودة والمحجوزة داخل الذات المُصَابَة[4].

وتتبَّع الدكتور نور الدين رايص ظهورَ مصطلح التّواصل (communication) واستعماله في اللُّغتين الفرنسيَّة والإنجليزيَّة، فنقل[5] بعضَ آراءِ علماء هاتين اللّغتين من كتبهم غير المترجمة أنَّ مصطلح التَّواصل ظهر في اللُّغة الفرنسيَّة في النصف الثَّاني من القرن الخامس عشر بمعنى ((شارك في)) وهذا المعنى قريبٌ جداً من اللاتينيّة وفعلها (communicare) الذي يعني: الوضع داخل وحدة والوجود في علاقة، واقترب مفهوم التَّواصل في القرن الخامس عشر إلى معنى ((اقتسم خبراً))، وعند انتهاء القرن الخامس عشر بدأ فعلُ التّواصل يأخذ معنى النّقل، مثال ذلك ما ذكره (فورتير) في معجمه أنَّ المغناطيس ينقلُ قوتَه إلى الحديد، وفي القرن السَّابع عشر ظهرت الأنابيب النَّاقلة، فبدأت الاستعمالات الدَّالَّة على التقسيم تسير تدريجيّاً إلى مستوى ثانٍ لتترك مكانَها للاستعمالات المركّزة حول فكرة (نقل)، وأصبحت القطارات والهواتف ووسائل الإعلام تدريجيّاً وسائل للتواصل.

أمَّا في اللّغة الإنجليزيّة فإن استعمال المصطلح فيها يشبه إلى حدٍّ كبير ما حدث في اللّغة الفرنسيّة، فعندما ظهرت في القرن الخامس عشر من جذرها اللاتينيّ (communis) بمعنى المشاركة، وفي نهاية القرن الخامس عشر أصبح هذا المصطلح يستعمل بمعنى" توحَّد" وبقي قرنين من الزَّمن يحملُ هذا المعنى، وفي القرن الثامن عشر وبعد تطور وسائل النَّقل أصبح هذا المصطلح جمعاً وأضحى يعني الطُّرق والقنوات والسِّكك الحديديَّة، وصار هذا المصطلحُ منذ بداية الثُّلث الأوَّل من القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكيَّة وبريطانيا يعني مطابع الطِّباعة والسِّينما والرَّاديو والتّلفزيون، وبدأ يشيع في مفردات الفنانين والصّحف اليوميّة.

وبعد هذه اللّمحة التّاريخيّة في مفهوم التَّواصل خلص الدّكتور نور الدين رايص إلى أنّ هذا المصطلح تضمّن أربعةَ معانٍ[6]:

1. إرسالُ شيءٍ ما لشخصٍ ما.
2- التحدثُ عن شيءٍ ما.

التحاورُ مع شخصٍ ما.

1. الانتقالُ من مكانٍ إلى آخرَ.

وقد أضاف (روبير) معنىً خامساً علميّاً وهو تدخل العلاقة الديناميكيّة في عمل ما، وبمعنى أوضح هي نظريَّة التَّواصل والضَّبط الآليّ أو السِّبرنتيكا الذي يعني التّواصل مع الآلات، والسّبرنتيكا هو علم التّحَكُم والاتصال في الكائنات الحيّة، وقد اقتبست الكلمةُ من المرادف اليونانيّ لمدلول موجة دفة السفينة[7].

(1) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(2) يُنظر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي: 41 -42.
(3) يُنظر: الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري:10.
(4) يُنظر: استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة:4، (بحث).
(5) يُنظر: اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل:21_22.
(6) يُنظر: المصدر نفسه: 23.
(7) ينظر: مقدمة إلى نظرية المعلومات:269.

وأثْرَى القرن العشرون معارفَنا بمفاهيم مثل النِّسبيّة والالكترونيّات والتَّحليل النَّفسيّ والسُّلوكيّة وظهرت منذ الحرب العالميَّة الثَّانيَّة مفاهيمٌ جديدةٌ أيضاً مثل علم الذَّرة وعلم التَّحَكُّم والتَّوجيه(السِّبرنتيكا)؛ ولهذا يرى الدّكتور سعيد بنكراد أنَّ حقلَ التّواصل نشأ في أحضان حقل علميّ غريب إلى حدٍّ كبير عن عالم الملكوت الإنسانيّ، ولا يعترف بما يمكن أن تثيره الإرساليات من انفعالات وردود عند المُخَاطَب؛ إذ أثَّرت الحربُ العالميّةُ الثانيّةُ في إنشاء التَّواصل من خلال ما قام به مهندسو الاتصالات السلكيّة واللاسلكيّة والعاملون على قياس المسافات الافتراضيّة كتلك التي تربط بين قذيفة مدفع أرضي و طائرة عسكرية تحلِّق على علوٍ شاهقٍ وتسير بمسافاتٍ بعيدةٍ، فإذا أمْدَدْنَا المدفعَ بالمعلومات الخاصَّة بالفرق الموجود بين المدار الحقيقيّ والمدار المثاليّ فسيكونُ بإمكانه إصابةَ الطائرةِ وإسقاطَها[1]، وفي المدَّة التّأريخيّة نَفْسِها قدَّم المهندس "كلود شانون" نظريتَه في المعلومات التي أخرجت الاتصال من علم لا يزال قيد التّشكيل إلى عِلْمٍ موجودٍ بالقوة و قائمٍ بذاته له موضوعاتُه المتعددةُ ومفاهيمُه الإجرائيّةُ الخاصّةُ به[2]، إذ قدَّم خُطَاطَة تُخْتَصَرُ من خلال خاناتِها ونمط اشتغالها العمليَّةُ التَّواصليَّةُ برمتِها، ولقد كانت الغايّةُ من هذه الخُطَاطَة تحسينَ مردوديّة الاتصالات الصّوتيّة التي تتمُّ عن بُعْد بجميع أشكالها من خلال التّقليص من حجم الضّياع الذي يُشَوّش على الإرساليّة ويتلف الكمَّ المعلوماتيّ التي تتضمنه الإرساليّةُ المبثوثةُ، وهو ضياع لا علاقةَ له بسوء الفهم الناتج عن القدرات الإدراكيّة عند الإنسان، وإنَّما هو أمرٌ تقنيّ نتيجة عدم ملاءمة الآلات الموجودة لمتطلبات الاتصال، وتعد هذه الخُطَاطَة من الأسس التي بنيت عليها نظرية التّواصل الحديثة، إذ تتخذ هذه الخُطَاطَة الشّكل الآتيّ [3]:

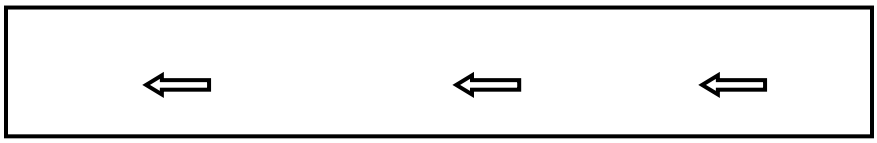

مصدر الخبر الباث الإشارة النّهائيّة المتلقي

الهدف الإرساليّة الإشارة المبثوثة الإرساليّة

والتّواصل على وفق هذه الخُطَاطَة وحيدُ الاتجاه يعتمدُ على مصدر أصليّ هو منبع الإرساليّة إلى نقطة نهائيّة هي منتهى الاتصال، فالخبرُ عنده وحدة إحصائيّة مجردّة تتعامل مع الإرساليّة في انفصال عن دلالاتها فهو كيان أعمى، وهذا الامر قلَّص من مردوديتها في ميدان التّواصل الذي يعتمد المعطياتِ الإنسانيةَ منطلقاً لإنتاج وقائع خبريّة وإبلاغيّة تؤثّر في المُخَاطَب وتنتج التّفاعل بينه وبين المُتَكَلِّم[4]

وبعدها تعددّت الرّؤى والاتجاهات الفكريّة، فقد كان التّواصلُ محلَّ اهتمام كلِّ المجالات، فتجاذبته حقولٌ معرفيّةٌ كثيرةُ التّنوع تكاد تشملُ كلَّ المنتوج الإنسانيّ وكلَّ الأشكال الثّقافيّة التّي تتحدّد من خلالها هويةُ الأفراد وتنبئ عن اهتماماتهم، فما ينتجه الإنسانُ عبرَ لغتِه وأشيائه وجسدِه وإيماءاته وطقوسِه يندرجُ ضمنَ سيرورةٍ تواصليّةٍ متعددةِ المظاهرِ والوجودِ والتَّجليّ إلى الحدِّ الذي يجعل الثَّقافةَ في كليتها سيرورةً تواصليَّةً دائمةً[5].

وقد ورد في قاموس ((أكسفورد)) أنَّ التَّواصل يعني ((نقل أو توصيل أو تبادل المعلومات أو الأفكار بالكلام أو الكتابة أو بالإشارات))[6]، وذكر "كارل هوفلاند" أنَّ التّواصل ((هو العمليّة التي يقوم خلالها القائم بالاتصال بمنبهات (عادة رموز لغوية) لكي يعدِّل سلوك الأفراد مستقبلي الرسالة))[7].

(1) يُنظر: استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة: 7، (بحث).
(2) يُنظر: مقدمة إلى نظرية المعلومات:67، ونظرية التواصل في اللسانيات الحديثة:69(بحث).
(3) يُنظر: مقدمة إلى نظرية المعلومات:70، استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة:8.(بحث)
(4) يُنظر: استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة:8.
(5) يُنظر: المصدر نفسه:3.
(6) الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي:17.
(7) الاتصال والخدمة الاجتماعية:17.

وقدَّم ((جون ديبوا)) في معجم اللّسانيات تعريفين للتَّواصل: أحدهما: أنَّ التَّواصل تبادل كلاميّ بين المُتَكَلِّم الذي ينتج ملفوظاً، أو قولاً موجَّهاً نحو مُتَكَلِّم يرغب في السّماع، أو إجابة واضحة أو ضمنيّة، وذلك تبعاً لنموذج الملفوظ الذي أصدره المُتَكَلِّم. والآخر: أنَّ التَّواصل حدثٌ أو نبأ، يُنْقَلُ من نقطةٍ إلى أخرى، ونقل هذا الحدث النبأ أو النبأ يكون بواسطة مُرْسِلة استقبلت عدداً من الرّسائل المفكوكة[1].

ويعرِّف((شارل كولي)) التَّواصلَ قائلا :((التّواصل هو الميكانيزم الذي بواسطته تُوْجَد العلاقاتُ الإنسانيّة وتتطور .إنه يتضمن كلَّ رموز الذهن، مع وسائل تبليغها عبر المجال، وتعزيزها في الزمان. ويتضمن أيضاً تعابير الوجه وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والقطارات والتلغراف والتلفون، وكل ما يشمله آخر ما تم في الاكتشافات في المكان والزمان))[2].

ويتبيّن من هذا التعريف أنَّ التّواصل جوهرُ العلاقات الإنسانيّة، ومُحَقِّق لتطوره، لذا فالتّواصل له وظيفتان من خلال هذا التعريف، **وظيفة معرفيَّة:** تتمثل في نقل الرموز الذهنيّة، وتبليغها في الزّمان والمكان، بوسائل لغويّة وغير لغويّة. **ووظيفة تأثيريَّة وجدانيَّة:** تقوم على تمتين العلاقات الإنسانيَّة، وتفعيلها على المستوى اللّفظيّ وغير اللّفظيّ. إذ يرى (أمبرتو إيكو) ((أنّ التّواصل اللساني هو سيرورة تتضمّن عدداً هائلاً من السلوكيّات الإنسانيّة: اللغة والإيماءات والنظرة والمحاكاة الجسديّة والفضاء الفاصل بين التّواصل اللفظي والتّواصل غير اللفظي))[3].

فالتَّواصلُ عمليّةٌ مركّبة تقوم على استعمال وسيلة معينة– من أهمها اللُّغة– لنقل المعلومات والخبرات إلى الآخرين، وتتأسَّس على مجموعة من العناصر الضَّروريَّة لإنجاح التّواصل.

والتَّواصل كمصطلح لسانيّ يتزاحم مع مصطلحات أخرى ويتداخل معها، منها الاتصال ويرى بعضهم أنّ بين مصطلحي الاتصال والتَّواصل خصوصاً وعموماً؛ فالاتصال يكون من جانب واحد دون الآخر، في حين أنَّ التواصل يكون أعمّ من ذلك عندما يكون المُتَكَلِّم فيه مستقبلاً والمستقبلُ مُرْسلاً فاعلاً ومنفعلاً [4]، كما نجد من لا يفرّق بين المصطلحين ويجعلهما بمثابة المترادفين[5].

وما يتبنّاه الباحث في هذه الدّراسة، هو عدُّ التَّواصل مقابل للمصطلح الأجنبيّ (Communication)؛ ذلك لأنَّ التَّواصل يعني تعميم رمز أو علامة أو شيء ما، أي جعله عاماً ومشتركاً بين مجموعة من الأفراد[6]. وفي الاتصال هناك رغبة من أحد الطَّرفين باتجاه الآخر، وهذا الآخر قد يستجيب ويتفاعل مع تلك الرَّغبة أو لا يستجيب، فالاتصال يدلُّ على عنصر فعَّال واحد هو المُتَكَلِّم، فإذا خاطب مذيعُ التِّلفازِ من يشاهده فإنَّه يتصِّل بهم ولا يتواصَّل معهم؛ لأنَّ الجمهور لا يستطيع أن يتواصَّل معه ويخاطبه، أمَّا في التَّواصل فإنَّ التّفاعل أو الرّغبة في المشاركة تحدث من كلا الطّرفين[7]. وهذا يعني أنَّ ((التواصل يتأسس على تبادل التأثير والتأثر؛ لأن الصيغة الصرفية (تفاعل) تفيد في اللغة العربية المشاركة في القيام بأمور أو أعمال بين أفراد بعينهم))[8].

ويمكن التّمييز بين ثلاثة أشكال من التّواصل– بالنظر إلى عدد الأشخاص المشاركين في الحدث التَّواصليّ– هي: التَّواصل الذّاتيّ، والتَّواصل الشَّخصيّ، والتَّواصل الاجتماعيّ [9].

ومن ناحية أخرى يُقسَّم التَّواصل وفقاً لأنماط العلامات اللِّسانيّة المستخدمة فيه إلى التَّواصل اللَّفظيّ، والتَّواصل غير اللَّفظيّ. أمَّا التّواصل اللَّفظيّ فيستعمل فيه اللَّفظ كوسيلة لنقل الرِّسالة من المرسل إلى المتلقيّ [10].

(1) يُنظر: اللغة والتواصل إقترابات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي:78.
(2) التواصل اللساني والسيميائي والتربوي:10.
(3) استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة:11، (بحث).
(4) يُنظر: اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل:20.
(5) يُنظر: الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري:16-17.
(6) المتخيل والتواصل:163.
(7) يُنظر: سيكولوجيا الاتصال والعلاقات الإنسانية: 12.
(8) المحاورة مقاربة تداولية:21.
(9) يُنظر: العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال:10.
(10) يُنظر: المصدر نفسه: 15.

ويعتمد التَّواصل اللفظيّ على أصوات، ومقاطع، وكلمات، وجمل ويتمّ التّواصل فيه عبر القناة الصّوتيّة السّمعيّة أي: يتكئ أساساً على اللّغة الإنسانيّة ويتحقق سمعيّاً وصوتيّاً، فاللّغة المنطوقة لها مستوى لغويّ هو عبارة عن نظام من العلامات الدّالّة التّي تكون بمثابة نسق من الوحدات تُسمَّى وحدات الخّطاب[1]، وينقسم هذا النّوع من التّواصل على ضربين: التّواصل الشّفاهيّ، والتّواصل الكتابيّ، فالتّواصل اللّفظيّ هو التّواصل الذي يستعمل العلامات اللّغويّة وسيطاً له، وهذه العلامات اللّغويّة هي أقوى فعاليّةً في التّواصل وأشدُ طواعيّةً وتأثيراً في نقل التّراث والثّقافة؛ لأنّ النّظام اللّفظيّ على خلاف نظم العلامات الأخرى يمكنه من خلال التّمحيص الدّقيق للبُنَى النّحويّة والدّلاليّة أنْ يشير إلى تنوّع واسع للمقاصد والمفاهيم، ويستتبع ذلك قابلية الظّواهر اللّغويّة للتحليل سواء أكان هذا داخل اللّغة أم خارجها[2].

أمَّا التَّواصل غير اللَّفظيّ، أو ما يسمى اللُّغة الصَّامتة أو لغة الجسد أو السُّلوك الحركيّ أو العلامات الحركيَّة[3]، فيشتملُ على كلِّ الأفعال الاتصالية التّي تتجاوّز الكلام والكتابة نحو الإشارات، والإيماءات، وتعبيرات الوجه، والحركات الجسميَّة[4].

ويساعد التّواصل غير اللّفظيّ على تحديد الجوانب الآتيّة[5]:

تحديد المؤشرات الدَّالَّة على الانفعالات والعلاقات الوجدانيّة بين المُتَكَلِّم والمُخَاطَب.

تعزيز الخطاب اللغويّ، وإغناء الرّسالة بتدعيمها بالحركات لضمان استمرارية التّواصل.

يؤشر على الهُويّة الثَّقافيَّة للمتواصلين من خلال نظام الحركات والإشارات الجسديَّة.

ولا ينفصل هذا النوع من التَّواصل عن التَّواصل اللَّفظيّ، بل إنَّه ينوب عن اللَّفظ أو يعضده أحياناً فيكون وسيلة لإيصال المعنى المقصود[6]، ((ولولا الإشارات التواصلية والإيماءات المصاحبة... لما وجدنا إلى فهم الملفوظات سبيلاً))[7].

وقد أقرَّ بعضُ الباحثين بوجوب النَّظَر إلى النَّوعين على أنَّهما وحدة غير قابلة للانفصال، يقول ((بيرد وستال)): ((قادني بحثي الخاص إلى نقطة وهي أنني لست بعد هذا راغباً في تسمية كل الأنظمة اللغوية والإشارة أنظمة اتصال، فإنَّ كل البيانات التي بدت تظهر لي أنَّها تؤيد القناعة بان الانظمة اللغوية والإشارية هي أنظمة اتصالية أساسية، وأنَّ انبثاق النظام الاتصالي يمكن تحقيقه من خلال علاقتهما المتداخلة، ومع انظمة مقاربة من النماذج الحسية))[8].

ثانياً: التَّواصل اللّسانيّ في النَّظريات الغربيَّة.

اتسم القرن العشرون بسمة التَّحليل العلميّ للُّغة، وقد أنجز هذه المَهَمَّة علماءُ الرّياضيات، والمناطقة، واللّسانيون (وهم الأكثر أهليَّة لذلك)؛ وهكذا صار عصراً للتعاون بين المجالات المعرفيّة المتداخلة الاختصاص؛ لإنجاز مهمَّات واسعة النِّطاق، وفي نقل إجراءات منهجيّة من فروع العلم الأخرى، وإعادة غرسها في مجال اللّغة لتحليل الظّواهر اللّسانيّة[9].

ويمكن مسايرة نظريّة التّواصل اللّسانيّ على مرحلتين:

(1) التواصل اللساني والسيميائي والتربوي:31.
(2) العبارة والإشارة، دراسة في ضوء نظرية الاتصال:15.
(3) يُنظر: المصدر نفسه: 100.
(4) يُنظر: مهارات الاتصال: 7، وفن الإقناع - اللغة والحوار: 161.
(5) يُنظر: مهارات الاتصال: 7.
(6) يُنظر: الاتصال ونظرياته المعاصرة: 28.
(7) الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه: 138.
(8) التواصل اللساني والسيميائي والتربوي::34.
(9) يُنظر: اتجاهات البحث اللساني:102، وانفتاح النسق اللساني – دراسة في التداخل الاختصاصي:7.

الأولى: مرحلة التأَّسيس وتتمثل عند سوسير[1]:

لم يتحدَّث دي سوسير عن التّواصل بشكل مباشر، وإنما أشار إليه في حديثه عن ثنائية اللّغة والكلام في نصٍّ سمَّاه ((مدار الكلام)) ضمن فقرة عقدها لمكانة اللّغة في وقائع اللّسان، إذ افترض من خلاله وجود شخصين يتحاوران ويتواصلان فيما بينهما، ويرمز للشخص الأوَّل بالرمز (أ) وللثاني بالرمز (ب)[2].

وتتم عمليّة التَّواصل بين هذين الشَّخصين عن طريق انتقال الأفكار الموجودة في دماغ الشّخص الأوَّل (أ) إلى أذن الطّرف الآخَر (ب)، ثم يستمر التَّواصل عند الطّرف الثانيّ (ب) ولكن بأسلوبٍ معكوسٍ؛ إذ تسير الإشارة من الأذن إلى الدماغ، ولكي تتمّ عمليّة التّواصل بنجاح يتمُّ الربطُ بين الصّورة والفكرة، فإذا تكلَّم الشّخص الثاني (ب)، بدأ فعلٌ جديدٌ من دماغه إلى دماغ الشّخص الأوَّل (أ) بإتباع المراحل التي سار فيها الفعل الأوَّل[3]، ويُعَد هذا المفهوم حجرَ الأساس التي قامت عليه البنيويّة الألسنيّة، ومن ثم مدرسة (براغ) التي ظهر معها مفهومُ التّواصل بشكله النهائيّ[4]؛ إذ عُدَّ الدليل على أنّه أداة تواصليَّة بين شخصين يرميان التّواصل عن قصد، وبهذا نظر سوسير إلى التّواصل على أنَّه عبارة عن دائرة كلام تتمُّ بين شخصين على الأقل[5].

ولم يقف التّواصل عند سوسير على استعمال علامات اللّغة اللفظيّة، بل تجاوز ذلك إلى ما هو غير لفظيّ، إذ يقول:((إذا أردنا أن ندرك الطبيعة الحقيقيّة للّغة فعلينا أنْ نفهم ارتباطها بالأنظمة الأخرى للإشارات))[6].

واللُّغةُ عنده ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ تخدم غرضَ التَّفاهم المتبادَل فالارتباط بين الصّوت والمعنى يجب أنْ يتولَّد في العقل؛ لأنَّه ذو أهميَّة حاسمة في عمليَّة التّواصل[7]؛ لأنَّ ما تسمعه الأذنُ وما تبصُره العينُ وما يدركه العقلُ من العلاقة بين اللّفظ والمعنى مادةً وصورةً يمثل حالةً من حصول التّواصل عند المتلقيّ[8].

ويُعدّ سوسير أوَّل بنيويّ يؤسِّس لنظريَّة التّواصل بهذا المفهوم، وقد اعترف له أصحابُه في تأسيسه لهذه النظرية من داخل اللّسانيات البنيويّة [9]. وأفاد منه فيما بعد أصحابُ نظريَّة سيمولوجيا التّواصل التي تهدف إلى الإبلاغ والتَّأثير باستعمال الوسائل اللّغويّة وغير اللغويّة لتنبيه الآخر والتأثير فيه، ويمثل هذه النّظرية كلٌّ من((بريتو، ومونان، ويوسينسن)) الذين يعدُّون الدليلَ أداةً تواصليَّةً تؤدّي وظيفةَ التّبليغ، وتحمل قصداً تواصليّاً، وهذا القصد التّواصليّ حاضرٌ في الرَّسائل اللغويّة وغير اللّغويّة؛ فكلُّ خطابٍ يتجاوز الدَّلالةَ إلى القصديّة الوظيفيّةِ يُدْرَج تحت مظلة سيمولوجيا التّواصل[10].

الثانية: مرحلة التَّنظير (نظريَّة التَّواصل عند رومان جاكبسون):

اتسعت دائرة التّأثير بـ ((سوسير)) حتَّى ظهرت حلقاتٌ علميّةٌ مثلّت اتجاهات لها رؤيتُها ومشروعُها اللّسانيّ الخّاصّ، ومن أهمها ((الاتجاه الوظيفيّ)) عند مدرسة ((براغ)) التّي ظهر مع بزوغ فجرها مفهومُ التّواصل اللّسانيّ، وإنَّ أهم سمة ميَّزت هذا الاتجاه هي النّظر إلى اللُّغة عن طريق تحديد وظيفة المكونات التّي يتألّف منها الحدث التَّواصليّ[11].

ومن أهم رواد هذا الاتجاه رومان جاكبسون التي تجلَّت اسهاماتُه في مجال اللّسانيات الوظيفيّة من خلال الأبحاث التي قام بها والتّي ركّز فيها على وظائف اللّغة[12].

(1) يُنظر: نظرية التواصل في ضوء اللسانيات الحديثة:65، (بحث).
(2) يُنظر: فصول في علم اللغة العام:34، والنظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون دراسة ونصوص، دراسة ونصوص:63.
(3) يُنظر: فصول في علم اللغة العام:35.
(4) يُنظر: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص:64.
(5) يُنظر: اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل:60.
(6) فصول في علم اللغة العام:40.
(7) يُنظر: اتجاهات البحث اللساني:194.
(8) يُنظر: بحوث ودراسات في علوم اللسان:229.
(9) يُنظر: نظرية التواصل في اللسانيات الحديثة:67، (بحث).
(10) يُنظر: سيمولوجيا التواصل وسيمولوجيا الدلالة:58، (بحث).
(11) يُنظر: مدارس اللسانيات، التسابق والتطور:105، واللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل:66.
(12) يُنظر: اللسانيات ونظرية التواصل، رومان ياكبسون نموذجا:15.

ويمثّل اللّقاءُ البارزُ الذي حصل بين اللّسانيات والتَّواصل خطوةً من الخطوات الرّائدة، إذ أصبح موضوع التّواصل في اللّسانيات _ وعند جاكبسون بشكلٍ خاصّ_ من المواضيع المحوريّة، وقد شكَّل التّواصل اللسانيّ فرعاً من الفروع المدروسة في نظريّة التّواصل، وتمَّت في هذا الإطار عمليات تحديد دقيقة لمفاهيم متعددة وحدود كثيرة، إذ تمَّ تحديد موضوع التّواصل بعدِّه بحثاً تأمليَّاً في المميزات الخاصة في كلِّ نظام من العلامات مستعمل بين كائنين يهدف إلى غايات تواصليَّة[1].

وقد أفاد جاكبسون من الرَّوافد العلميَّة والمعرفيَّة التّي سبقته نحو أبحاث الرّياضيين ومهندسي التّواصل، لاسيما خُطَاطَة المهندس ((كلود شانون))[2]. ومن هنا وضع جاكبسون نموذجاً لسانيّاً للتّواصل كشف من خلاله عن مختلف أركان التَّواصل ومستويات التّعبير اللغويّ، وما يتفرّع عن هذه المستويات من وظائف لغويَّة، فكان عِماد التَّواصل عنده يقوم على ركيزتين هما: أركان التَّواصل، ووظائف التَّواصل.

أركان التَّواصل اللّسانيّ عند رومان جاكبسون:

انطلق جاكبسون من مسلَّمة جوهريَّة وهي أنَّ التَّواصل هو الوظيفة الأساسيَّة للّغة فحدَّد العناصر التي تُشَكِّل حدث التّواصل اللّسانيّ، وهي:

1. المُرْسِل:

هو الطَّرفُ الأوَّل والأساسيّ في عمليّة التَّواصل ومصدرُها والمسؤولُ عن إرسال الرِّسالة؛ إذ يتَّجِه إلى الطّرف الثانيّ بقصد الإفهام والتأثير من خلال اختيار ما يناسب منزلته وما يتفق وإعداد الخطاب وما يقتضيه موقعه[3].

ولا بدَّ للمُرْسِل أنْ تكون لديه القدرتان المُسْتَقْبِلة والمُنَسِّقَة للقيام بعملية التّرميز وتفكيكها بالرجوع إلى النّظام اللّغويّ الذي يشترك فيه طرفا الخطاب، وأن يكون المُرْسِل على قدرة كافية بتوجيه الخطاب[4].

وقد تداول اللّسانيون مصطلحات متعددة على المُرْسِل منها: المُتَكَلِّم[5]، والباث[6]، والمُخاطِب، والنّاقل أو المتحدِّث[7].

2. المُرْسَل إليه:

وهو الطَّرف الآخر في عمليَّة التَّواصل، والمُسْتَقْبِل لمضمون الرِّسالة، وإليه تتّجه لغة الخطاب التي تعبِّر عن مقاصد المُرْسِل فهو يؤدي وظيفة غير مباشرة في توجيه المُرْسِل عند اختيار أدواته وصياغة خطابه[8]. فضلاً عن قيامه بتفكيك الرّسالة اللّغويّة باعتماد الإشارات المخزونة في ذاكرته مستعيناً في ذلك بثقافته، وتجاربه، وأحواله الخاصّة التي ينفرد بها عن غيره وإنْ كانت مشتركة بين أفراد مجتمعه[9].

وتعددت المصطلحات الدَّالة عليه فهو ((المتلقي... وهو المستجيب للنصّ وهو المُسْتَقبِل وهو المستقبل وهو الفاهم وهو المتَقَبِل أيضاً وهو المُرسَل إليه وهو المُخَاطَب وهو السامع والقارئ.. إلى آخر السلسلة من الأسماء والأوصاف))[10].

وقد يطلق عليه أيضاً اصطلاح المُتَلَفُظ المُشَارِك أي أنّه يشاركُ المُرْسِلَ في صياغة الكلام عن طريق تأويل مقاصده[11]. وسمَّاه ميشال زكريا ((إنسان مُلْتَقِط))[12].

(1) يُنظر: المصدر نفسه:24.
(2) يُنظر: نظرية التواصل في اللسانيات الحديثة:68. (بحث)
(3) يُنظر: استراتيجيات الخطاب، مقدمة المؤلف:V، والنظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص:66.
(4) يُنظر: اللسانيات ونظرية التواصل، رومان ياكبسون نموذجاً:37.
(5) نحو نظرية أسلوبية لسانية:125.
(6) الأسلوبية والأسلوب: 137.
(7) التواصل اللساني والشعرية، مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون: 24.
(8) يُنظر: استراتيجيات الخطاب: مقدمة المؤلف:V.
(9) يُنظر: وصف اللغة العربية دلالياً في ضوء مفهوم الدلالة المركزية دراسة حول المعنى وظلال المعنى:133.
(10) استقبال النص عند العرب: 29 – 30.
(11) يُنظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب:16.
(12) الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والاعلام:52.

3. الرِّسالة:

تُعد الرِّسالة ثمرة العمليَّة التَّواصليَّة بين الطَّرفين فهي المحتوى الذي يروم المُتَكَلِّم إبلاغه للمُخاطَب؛ ويتضمن هذا المحتوى المعلومات، والأفكار، والفرضيات الموجودة في ذهن المُتَكَلِّم الذي يعمل على إرسالها إلى مخاطَب معين، وتختلف الرِّسالة بحسب طبيعة المعلومات التي تحملها: عاطفيّة، سياسيّة، لسانيّة. وبذلك تشكِّل الرّسالة كتلةً بنيويّةً واحدةً متماسكةَ الأجزاء، وأيّة محاولة لفصل أجزائها بعضها عن بعض تؤدي إلى تغيير الرِّسالة وإعادة بنائها من جديد [1].

وتمثّل الرِّسالة الجانب الملموس في العمليّة التّواصليّة؛ إذ ترتكز على المخزون اللّغويّ الذي يختار منه المُتَكَلِّم ما يحتاج إليه للتعبير ثُمَّ ينظمها فيبثها إلى المُخاطَب[2]. وتتخذ الرِّسالة عدة أشكال فقد تكون كلامًا شفهيًا أو مكتوبًا أو إيحائيًا عن طريق الإشارة وغيرها، ويمكن الفرق بين رسالة وأخرى حسب نيَّة التواصل وأهدافه والظروف المحيطة في إنجاح عمليَّة التواصل أو إفشالها[3].

ولم يسلم المصطلح من التعدد، إذ سمَّاها ميشال زكريا "مرسلة لغوية"[4]، وترجمها الدكتور محمد الحناش بـ"إرسالية"[5]

4. السياق (المرجع):

هو ((الظروف المتعلِّقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة أو بتعبير آخر دراسة الكلام في المحيط الذي يقع فيه، ويشمل السّياقُ الخارجي الظّروف المحيطة بالحدث الكلامي وهي العصر ونوع القول وجنسه، واللّغة أو اللّهجة المستعملة، والمُتَكَلِّم أو الكاتب، والمستمع أو القارئ، والعلاقة بين المرسل والمتلقي من حيث الثقافة والجنس والعمر والألفة والطبقة الاجتماعية))[6].

ولا يمكن أن تُفْهم الرِّسالة اللُّغويّة إلا من خلال الإحالة على المُلابسَات التي أُنجزت فيها قصد إدراك القيمة الإخباريّة للخطاب ؛ ولهذا ألَّح جاكبسون على السياق بوصفه العامل المهم في الرِّسالة بما يمدّها من ظروف[7].

وقد حصر جاكبسون الأنماط الأساسيّة للسياقات على الشكل الآتيّ[8]:

1. الموجودات مع تعبيرها اللغويّ أي الاسم.
2. الأحداث المعبَّر عنها بوساطة الفعل.
3. كيفيات الوجود المعبَّر عنها في اللّغة تباعاً بوساطة الصّفة والحال.

5. السَّنَن:

هو نسق القاعدة المشتركة بين المُتَكَلِّم والمُخَاطَب الذي بدونه لا يمكن للرسالة أنْ تُفهم أو تُؤوَّل[9]. ويُعد لغةً مشتركةً يتكلمها المتخاطبون ممَّا يساعد عملية التّواصل ويسهلها[10].

فالسَّنن عند جاكبسون يُحِيل على نظام ترميز مشترك كليّاً أو جزئيّاً بين المتخاطبين، ونجاح التَّواصل في وضع تخاطبيّ ما يعتمد في الأساس على هذا النِّظام المشترك؛ إذ يوجد لكلِّ جماعةٍ لسانيّة، ولكلِّ متكلِّم لغةٌ موحدةٌ، إلا أنَّ هذا السَّنن الشموليّ يمثّل نسقًا من الأنواع السّننيّة الفرعيّة في التّواصل المتبادَل، فكلُّ لغةٍ تشمل العديدَ من الأنساق المتزامنة الذي يتميَّز كلُّ نسقٍ منها بوظيفة مختلفة[11].

(1) يُنظر: المحاورة مقاربة تداولية:34.
(2) يُنظر: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص:65.
(3) يُنظر: نظرية التواصل، المفهوم والمصطلح:148، (بحث).
(4) الألسنية(علم اللغة الحديث)، المبادئ والاعلام:53.
(5) البنيوية في اللسانيات:192.
(6) الدلالة السياقية عند اللغويين:76.
(7) يُنظر: التواصل اللساني والشعرية مقاربة تحليلية لنظرية جاكبسون:26.
(8) يُنظر: المصدر نفسه:27.
(9) يُنظر:اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل:232.
(10) يُنظر:المدارس اللسانية المعاصرة:99.
(11) يُنظر:المصدر نفسه:26.

6. القناة:

هي ((الأداة التي من خلالها أو بواسطتها يتم نقل الرِّسالة[1]))، فهي وسيلةُ تواصل بين الأشخاص، وتنتقل عبرها الرِّسالة من المُتَكَلِّم إلى المُخَاطَب ممَّا يسمح بقيام التَّواصل بينهما[2]، ((وتقتضي الرسالة... اتصالاً أي قناة فيزيقية وربطاً نفسياً بين المُرْسِل والمُرْسَل إليه، يسمح لهما بإقامة التّواصل والحفاظ عليه))[3].

وظائف التواصل اللسانيّ عند رومان جاكبسون:

إنَّ ارتباط العناصر السَّابقة المكوِّنة لعمليَّة التَّواصل بنسب متفاوتة فيما بينها ينتج الوظائف السِّتَّ لهذه العمليَّة، وهذا الارتباط مقترن بالهدف المنشود من هذه العمليَّة؛ إذ ((إنَّ الغرض الَّذي نهتمُّ به يتحكَّم في طبيعة تقسيم الوظائف وتحديدها))[4]، وهي على التَّوالي:

1. الوظيفة التَّعبيريَّة:

هي المُعَبِّرة عن المُتَكَلِّم تجاه ما يتحدَّث عنه، والوظيفة التعبيريّة ((تنزع إلى التعبير عن عواطف المرسل أو مواقفه إزاء الموضوع الذي يعبِّر عنه، ويتجلى ذلك في طريقة النطق مثلا او في أدوات تعبيريّة أخرى))[5].

وقد فسَّر (جاكبسون) هذه الوظيفة بقوله:((إنَّ الوظيفة المسماة تعبيريّة أو الوظيفة الانفعاليّة التي تتمحور حول المرسل تهدف إلى التعبير المباشر عن موقف الفرد ممّا يتكلّم عنه فهي تنزع إلى إعطاء الانطباع بوجود انفعال صحيح ما او مصطنع))[6].

وقد وضع جاكبسون محورين تقوم بهما الوظيفة التَّواصليّة: أحدهما: استعمال أدوات دالّة على التّكلُّم مثل(أنا، أو تاء المُتَكَلِّم)، أو استعمال صيغة التّعجب الدّالّة على مظهر انفعاليّ للمُتَكَلِّم، والآخر: عدم اختزال هذه الوظيفة في مظهرها الإخباريّ بل يجب النَّظر إلى العناصر غير اللّسانيّة[7]، ومن ثَمَّ حَدَدَّت هذه الوظيفةُ العلاقةَ بين المُتَكَلِّم والرِّسالة وقدمت انطباعه عن موقف معيَّن، فهي وظيفة لغويَّة تظهر جليَّة في الرَّسائل الَّتي تتكيَّف فيها اللُّغة لتتَّخذ من المُتَكَلِّم مرتكزاً لها بشكلٍ مباشر من دون سواه، مشيرة بع ذلك إلى موقفه ممَّا يتحدَّث عنه، فتهدف إلى تقديم انطباع عن انفعال معيَّن صادق أو كاذب وتستطيع تحديد العلائق بين الرِّسالة والمُتَكَلِّم. فعندما يتحدَّث شخصٌ ما إلى شخصٍ آخر عبر كلامٍ أو ما شابه ذلك من أنماط الدِّلالة، فإنَّه في الحقيقة يرسل أفكاراً تكون نسبيَّة لطبيعة المرجع (وهي الوظيفة المرجعيَّة)، إلاَّ أنَّه بمقدور ذلك الشَّخص أن يعبِّر عن موقفه إزاء هذا الشَّخص، فيحسُّ به جيِّداً كان أم سيئاً، جميلاً كان أم بشعاً، مرغوباً فيه كان أم غير مرغوب فيه، منحرفاً أم مضحكاً[8].

2. الوظيفة الإفهاميَّة:

تبرز هذه الوظيفة عندما تتجّه الرِّسالة إلى المُخَاطَب، وتجد تعبيرها ((الاكثر خلوصاً في النِّداء والأمر اللّذين ينحرفان من وجهة نظر تركيبيّة وصرفيّة وحتّى فونولوجيّة في الغالب عن المقولات الإسميّة والفعليّة الأُخرى، وتختلف جمل الأمر عن الجمل الخبريّة في نقطة أساسيّة: فالجمل الخبريّة يمكنها أنْ تخضع لاختبار الصدق ولا يمكن لجمل الأمر أن تخضع لذلك))[9].

وتُولَّد هذه الوظيفة لغويّاً بالتَّركيز على عنصر المُخَاطَب، وتسعى متوسِّلة باللُّغة إلى إثارة انتباهه أو الطَّلب إليه القيام بعمل ما، فتدخل في صلبها على سبيل التمثيل الجمل الأمريَّة[10]، وتسعى أيضاً إلى تحديد العلائق بين الرِّسالة والمرسَل إليه بغية الحصول على ردَّة فعل المُخَاطَب؛ لأنَّ لكلِّ اتِّصالٍ هدفاً وغايةً وُضِعَ من أجلها.

(1) لغة الاتصال دراسة في الخصائص والتأثيرات،: 23.
(2) يُنظر: مناهج البحث في اللغة:50.
(3) قضايا الشعرية:27.
(4) اللغة والتفسير والتواصل:85.
(5) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب:57.
(6) قضايا الشعرية:29.
(7) يُنظر: قضايا الشعرية:29.
(8) يُنظر:السيمياء:10.
(9) قضايا الشعرية:29.
(10) يُنظر: مدخل إلى اللسانيات 45.

3. الوظيفة المرجعيَّة:

تُحَدِد هذه الوظيفةُ العلاقةَ بين الرِّسالة والموضوع الذي ترجع إليه. وتتوجَّه نحو المرجع المشترك بين طرفي التَّواصل الأساسيين؛ أي ما هو مشترك ومتَّفق عليه من قبل المُتَكَلِّم والمُخَاطَب، وهو المبرِّر لعمليَّة التَّواصل؛ ذلك لأنَّنا نتكلَّم بهدف الإشارة إلى محتوى معيَّن نرغب بإيصاله إلى الآخرين ونتبادل الآراء معهم حوله. وتتعدَّد أنواع المرجعيَّات حسب الخطاب الأدبيِّ الَّذي يحيل إليها، فقد تكون مرجعيَّات اجتماعيَّة وفلسفيَّة، ورصائد ثقافيَّة وطبيعيَّة، وعلاقات ذاتيَّة وموضوعيَّة، وبنيات عميقة وسطحيَّة(1).

وجعلها ((بيار غيرو)) قاعدة كلِّ اتِّصال؛ لأنَّها تستكشف العلائق القائمة بين (الرِّسالة) وموضوع ترجع إليه، إذ إنَّ المسألة الأساسيَّة تكمن في صياغة موضوعيَّة لمعلومات صحيحة عن المرجع، يمكن ملاحظتها والتَّدقيق في صحَّتها.(2)، وغالباً ما تُحدَّد الدلالة بناءً على السّياق الذي وردت فيه، فتتولَّد عنه الوظيفة المرجعيّة التي تؤدي إلى التَّواصل، وثَمَّ يكون السياقُ كفيلاً بتحديد المعنى وتمييزه(3).

وتظهر هذه الوظيفة في الرّسائل ذات المحتوى التي تتناول موضوعاتٍ وأحداثاً معينة، فشكلَّت هذه الوظيفة التبرير الأساسيّ لعمليَّة التَّواصل(4).

4. وظيفة إقامة الاتصال:

تهدف هذه الوظيفة إلى تحقيق عملية التَّواصل بين المُتَكَلِّم والمُخَاطَب وتؤدي إلى التبادلات التي تؤكد على مواصلة التَّواصل. وتظهر هذه الوظيفة في الرِّسائل الَّتي توظِّف اللُّغة لإقامة اتِّصال وتمديده وفصله، وتعتمد على كلمات تتيح للمرسِل إقامة الاتِّصال أو قطعه؛ من مثل: (ألو ! أتسمعني؟ أفهمت؟ استمع إليَّ!)، وقد توجد حوارات تامَّة هدفها الوحيد تمديد الاتصال والحفاظ عليه والتَّأكُّد من أنَّ المرسل إليه ما يزال مصغياً مقبلاً على التَّواصل، كما تؤدِّي مهمَّة بارزة في كافَّة أشكال الاتِّصال المتجسِّدة في المجتمع من طقوس، واحتفالات، وأعياد، وخطب، وأحاديث متنوِّعة تعود إلى طبيعة طرفيِّ الاتِّصال، إذ تنعدم أهمِّيَّة محتوى الرِّسالة فيها، ويغدو وجود الشَّخص المرسل وانتماؤه إلى المجموعة طرفي الاتِّصال الأساسيين، والمرجع هو الاتِّصال ذاته(5).

واضحٌ أنَّ هذه الوظيفة تؤدي أمرين: أحدهما: التأكد من أنَّ المُخَاطَب متفاعلٌ مع المُتَكَلِّم ومقبل عليه و متواصل معه، والآخر: تطويل الخطاب وتمديده بأداء عناصر معينة من أجل ديمومة عملية التَّواصل.

5. وظيفة تعدِّي اللُّغة:

تقوم هذه الوظيفة بدور أساسيّ في اللّغة، ففي كلِّ مرَّة يرى المُتَكَلِّم والمُخَاطَب أنَّه من الضروري التحقق من أنَّهما يستعملان تنظيم الرّموز بصورة جيِّدة، وقد شرح جاكبسون هذه الوظيفة بقوله: ((لقد تمَّ التمييز في علم المنطق الحديث بين مستويين من اللّغة: اللّغة الموضوع التي تتحدَّث عن الأشياء، وما فوق اللّغة الّذي يصف اللّغة ذاتها و تظهر وظيفة تعدِّي اللُّغة في الرِّسائل الَّتي تتمحور حول اللُّغة نفسها، فتتناول بالوصف اللُّغة ذاتها، وتشمل تسمية عناصر منظومة اللُّغة وتعريف المفردات))(6).

ويرى بعضُ الباحثين أنَّ هذه الوظيفة تُحِيْلُنا على أنَّ اللّغاتِ الانسانيّة قابلةٌ للتساؤل أو الإجابة على القضايا الواصفة او المحددة لدلالة العلامات المستعملة من قبل المُتَكَلِّم، فضلاً عن قضايا أُخرى تتعلّق بالرّصيد اللّغويّ الذي توافر عليه المتخاطبان من النّاحية الصّرفيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة(7).

(1) يُنظر: نظرية التواصل، المفهوم والمصطلح:144، (بحث).
(2) يُنظر:السيمياء:10
(3) يُنظر: البلاغة والنقد:302.
(4) يُنظر: اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل:38.
(5) يُنظر: قضايا الشعرية:30.
(6) قضايا الشعرية:31.
(7) يُنظر: التواصل اللساني والشعرية، مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون:37.

6. الوظيفة الشِّعريَّة:

تبرز هذه الوظيفة في الرَّسائل الَّتي تجعل اللُّغة تتمحور حول الرِّسالة نفسها؛ فتمثِّل عنصراً قائماً بذاته؛ أي تمثِّل العلاقة القائمة بين الرِّسالة وذاتها، فهي الوظيفة الجماليَّة بامتياز؛ إذ إنَّ المرجع في الفنون، هو الرِّسالة الَّتي تكفُّ عن أن تكون أداة الاتِّصال لتصير هدفه[1].

فاستهداف الرِّسالة بوصفها رسالة والتَّركيز عليها هو ما يطبع الوظيفة الشِّعريَّة للُّغة، إذ كانت القضيَّة تمثِّل محاولة إثبات أنَّ العامل المهيمن في اللُّغة الأدبيَّة هو شكل الرِّسالة، حيث نحسُّ بالكلمة بصفتها كلمة، في الوقت الَّذي تفضِّل فيه اللُّغة الشِّعريَّة الرِّسالة (الشَّكل) على أيِّ عامل آخر، وتؤخذ الكلمة (الرِّسالة) في تلك اللُّغة على أنَّها كلمة في شكلها نفسه، وفي وصفها الصَّوتيّ والنَّحويّ والمعجميّ، وهذا ما أراد (جاكبسون) أن يثبته عندما تحدَّث عن أنَّ الوظيفة الشِّعريَّة هي التَّوجُّه نحو الرِّسالة بصفتها رسالة[2].

وهذه الوظيفة لا يمكن اختزالها فقط في دراسة الشِّعر؛ بل هي حاضرةٌ في جميع الأجناس الأدبيَّة الَّتي تصبح فيها الرِّسالة هي الموضوع، وهذا ما أكَّده العالم ((رومان جاكبسون))؛ إذ قال:((ليست الوظيفة الشِّعريَّة هي الوظيفة الوحيدة لفن اللُّغة، بل هي فقط وظيفته المهيمنة والمحدَّدة، مع أنَّها لا تلعب في الأنشطة اللَّفظيَّة الأخرى سوى دور تكميليّ وعرضيٍّ))[3].

وأهم ما يُمَيِّزُ الوظيفةُ الشّعريّةُ للغة هو هدف الرِّسالة كرسالة للتأكيد عليها لذاتها، ولا يمكن الاستفادة من هذه الوظيفة إذا أهملنا مسائل اللّغة عامَّة، ومن جهة أُخرى يقتضي تحليل اللّغة أنْ نأخذ جديّاً وبعين الاعتبار الوظيفة الشّعريّة[4].

ويرى بعض الباحثين أنَّ (جاكبسون) قد تأثر في نظريته التَّواصليّة اللّسانيّة بمهندسي التّواصل وبالنظريّة الرّياضيّة للتواصل لصاحبها (كلود شانون)[5]، وحاول تطبيقها على اللّسانيات، وبذلك فإن جاكبسون لم يقتنع بتعريف اللّغة على أنّها وسيلةٌ للتواصل فحسب وإنّما هي ما تؤسّس للتواصل؛ ولهذا تمَّ شيوع نظريته التّواصليّة في المؤلفات اللّسانيّة[6].

الخاتمة:

كشف البحث عن عناية الإنسان بقايا التَّواصل منذ أنْ بدأ يحتاج غيره من بني جنسه، فلجأ إلى الهمهمة والزمجرة والصُراخ، واعتنى فلاسفة اليونان أمثال أفلاطون وأسطو بالجانب التواصلي بما قدَّموه من شروط للشعر والخطابة، وبمرور الزمن وتقدم وسائل التواصل أخذ هذا المفهوم ينتشر حتى أصبح نظرية تواصلية تدرس للغة بجوانبها المختلفة، وكان الفضل لسوسير وجاكبسون في إدخال هذه النَّظرية إلى حقل اللِّسانيات.

(1) يُنظر: السيمياء:12.
(2) يُنظر: التواصل اللساني والشعرية، مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون:40.
(3) قضايا الشعرية:33.
(4) يُنظر: الألسنية، علم الحديث قراءات تمهيدية:83.
(5) يُنظر: مقدمة إلى نظرية المعلومات:200، واتجاهات البحث اللساني:432.
(6) يُنظر: اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل:86.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

أوّلا: الكتب المطبوعة

- اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ترجمة: الدكتور سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فاير، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 2000م.
- الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، إبراهيم أبو يعقوب، دار مجدلاوي، عمّان، (د.ت).
- الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، سامية بن يامنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2012م.
- الاتصال والخدمة الاجتماعية، أميرة منصور، المكتب الثقافي الحديث، القاهرة، ط1، 1999م.
- الاتصال ونظرياته المعاصرة، حسن عماد مكاوي وليلى حسن السيّد، دار المصرية اللبنانية، ط 1، 1998م.
- استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغويَّة تداوليَّة، الدكتور عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط 1، 2004م.
- استقبال النصّ عند العرب، الدكتور محمد رضا مبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1999م.
- الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، الدكتور إدريس مقبول، جدارا للكتاب العالمي– عمَّان، وعالم الكتاب الحديث– إربد، الأردن، ط 1، 2007م.
- الأسلوبية والأسلوب، الدكتور عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، طرابلس– ليبيا، تونس، ط 3، (د.ت).
- الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق للنشر، عمَّان، ط 1، 1997م.
- الألسنية علم اللغة الحديث–المبادئ والاعلام، الدكتور ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1983م.
- انفتاح النسق اللساني– دراسة في التداخل الاختصاصي، الدكتور محي الدين محسّب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2008م.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن محمد بن المهدي أبو العباس بن عجيبة (1224هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي أرسلان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 2002م.
- بحوث ودراسات في علوم اللسان، الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، ٢٠٠٧م.
- البلاغة والنقد – المصطلح، والنشاة، والتجديد، الدكتور محمد كريم الكواز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2006م.
- البنيوية في اللسانيات، الدكتور محمد الحناش، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1980م.
- التكنولوجيا في عملية التعلم والتعليم، الدكتور بشير عبد الرحيم الكلوب، دار الشروق، بيروت، ط 2، 1999م.
- التواصل اللساني والسيميائي والتربوي، الدكتور جميل حداوي، مؤسسة المثقف العربي، المغرب، ط 1، 2015م.
- التواصل اللساني والشعرية– مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون، الطاهر بومزبر، الدار العربية للعلوم ناشرون– بيروت، ومنشورات الاختلاف– الجزائر، ط 1، 2007م.
- الدلالة السياقية عند اللغويين، الدكتور عواطف كنُّوش المصطفى، دار السياب، لندن، ط 1، 2007م.
- سيكولوجيا الاتصال والعلاقات الإنسانية، الدكتور غسّان يعقوب وجورف طبش، دار النهار، 1979م.
- السيِّمياء، بيار غيرو، ترجمة: أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1984م.
- العبارة والإشارة دراسة في نظرية الاتصال، الدكتور محمد العبد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 2007م.

- فصول في علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة: الدكتور أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ط 3، (د. ت).
- فن الإقناع– اللغة والحوار، الدكتور وليد حسن الحديثي، دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط 1، 2012م.
- قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي–دراسة مقارنة، الدكتور محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، ط1، 1996م.
- قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988م.
- لسان العرب, محمد بن مكرم أبو الفضل المعروف بابن منظور (711هـ), تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي, دار المعارف, القاهرة.
- اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل، الدكتور نور الدين رايص، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014م.
- لسانيات النص– مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1991م.
- اللسانيات ونظرية التواصل– رومان ياكبسون نموذجاً، عبد القادر الغزالي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2003م.
- لغة الاتصال– دراسة في الخصائص والتأثيرات، الدكتور أحمد عبد المجيد والدكتور فوزي هادي الهنداوي، مؤسسة الزمان، بغداد، ط 1، 2012م.
- اللغة والتفسير والتواصل، الدكتور مصطفى ناصف، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1995م.
- اللغة والتواصل– اقترابات لسانية للتواصلين الشفهي والكتابي، الدكتور عبد الجليل مرتاض، دار هومة، الجزائر، ط1، 2001م.
- اللغة، فندريس، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية ومطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950م.
- المتخيل والتواصل، محمد نور الدين آفاية، مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي، بيروت، ط 1، 1993م.
- المحاورة مقاربة تداولية، الدكتور حسن بدوح، عالم الكتب الحديث، أربد، الأُردن، ط 1، 2012م.
- مدارس اللسانيات– التسابق والتطور، جفري سامسون، ترجمة: محمد زياد كبة، الناشر جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1994م.
- المدارس اللسانية المعاصرة، الدكتور نعمان بوقرة، مكتبة الآداب، الجزائر، ط1، 2003م.
- مدخل إلى اللسانيات، الدكتور محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2004م.
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومنيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، مطابع الدار العربية للعلوم ناشرون– بيروت، ومنشورات الاختلاف– الجزائر، ط1، 2008م.
- مقدمة إلى نظرية المعلومات (الرموز، الإشارات، الضجيج)، جون ر. بيرس، ترجمة: المهندس فايز فوق العادة، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1990م.
- مناهج البحث في اللغة، الدكتور تمَّام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي–الأصول والامتداد، الدكتور أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ط1، 2006م.
- مهارات الاتصال، سيف الدين حسن العوض، السودان، ط 1، 2004م.
- نحو نظرية أسلوبية لسانيّة، فيلي ساندريس، ترجمة: الدكتور خالد محمود جمعة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003م.
- النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1993م.
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، الدكتور نهاد الموسى، المؤسسة العربية، الأُردن، ط1، 1980م.

- وصف اللغة العربية دلالياً في ضوء مفهوم الدلالة المركزية– دراسة حول المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، 1993م.

ثانياً: الرسائل والأطاريح:

- إشكاليات التلقي في الشعر العربي الحديث من عام 1925 إلى نهاية القرن العشرين، سهام حسن خضير الحميري، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 1990م.

ثالثاً: البحوث المنشورة

- استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة، سعيد بنكراد، مجلة علامات، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، العدد الحادي والعشرون، 2004م.
- سيمولوجيا التواصل وسيمولوجيا الدلالة، الدكتور جميل حداوي ضمن كتاب التواصل نظريات وتطبيقات، ضمن سلسلة كتب في غمار السياسة فكرا وممارسة، بإشراف. محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2010.
- نظرية التواصل– المفهوم والمصطلح، الدكتور رضوان القضماني وأسامة العكش، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد التاسع والعشرون، العدد الأول، 2007م.
- نظرية التواصل في اللسانيات الحديثة، محند الركنيك، بحث مستل من كتاب التواصل واللسانيات، شبكة الأنترنت العالمية.